قصيدة تاريخية خطيرة

أهل غرناطة يستغيثون السلطان بايزيد

في أوائل القرن السابع الهجري ذهبت ريح الموحدين من الأندلس، ونشأت دولة بني نصر أو بني الأحمر في بقية الأحداث من الدولة الاسلامية العظيمة — الجنوب الغربي من الجزيرة الكبيرة جزيرة الأندلس. وثبت بنو الأحمر على قراع الخطوب، ونزال الكوارث خمساً وستين ومائتي سنة. ثم ذهبت الصولة وولت الدولة، وأناخت الوحشة على المعقل الأخير للحضارة الاسلامية

هذا فجر اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٩٨٧، وهذا أبو عبد الله الشقي يسير في خمسين فارساً ليسلم مفاتيح الحمراء إلى فرديناند وايزابلا

وكان المسلمون قد استوثقوا لدينهم وأنفسهم وأموالهم، وأخذوا على الأسبان من الشروط ما شاءوا. وبذل لهم الأسبان من العهود والأيمان ما جعلوه حبالة إلى السيطرة والقتل والسلب والاكراه على التنصر

اشترط المسلمون زهاء ستين شرطاً يكفل لهم الوفاء بها سلامة شاملة، وطمأنينة عامة. واشترطوا أن يقبل شروطهم زعيم النصرانية بابا رومية

وما هو إلا أن ظفر الأسبان بعدوهم حتى استباحوا نقض العهود، والاغراق في العدوان والظلم والنهب والقتل والاكراه على التنصر. فلما استيأس المسلمون ثاروا بعدوهم المرة بعد المرة يؤثرون الموت الوحي على الموت البطيء، وما زال بهم القتل والاستعباد والتشريد والنفي حتى جلا آخرهم عن البلاد عام ١٠١٧ من الهجرة

وقد استصرخ مسلمو الأندلس ملوك المسلمين، فلم يصرخهم أحد إلا خير الدين باشا قائد الأساطيل العثمانية في عهد السلطان سليمان، فقد أمدهم في إحدى ثوراتهم بجند نصروهم على عدوهم ومكنوا لهم الرحيل، فحملت السفن منهم سبعين ألفاً إلى أفريقية

وكان المسلمون أرسلوا وفداً يستغيث السلطان بايزيد الثاني العثماني، وبعثوا بقصيدة بثوابها شكواهم، وعددوا ما أصابهم في أنفسهم ودينهم. وهي قصيدة طويلة ننشرها اليوم على صفحات الرسالة، معترفين بالفضل للشيخ الجليل العلامة الشيخ خليل الخالدي الذي كتبت في الرسالة عنه مرتين. جمعنا بالشيخ الكريم أحد المجالس في حلوان شهر رمضان الماضي. فسأله بعض الحاضرين، وهو يفيض في حديثه، عن كتاب عن المدافع كتبه أحد الأندلسيين فحدث عنه وقال: وكانوا يسمون المدافع الأنفاض، وقد قال قائلهم:

وجاءوا بأنفاض عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة

وهذا البيت من قصيدة بعث بها أهل غرناطة إلى السلطان بايزيد. فاستنشدناه ما يحفظ منها فأنشد ثلاثة وثلاثين بيتاً وقال: إن القصيدة طويلة تجاوز مائة بيت، وإنها عنده، قد نسخها في مدينة فاس. فسألناه أن يرسلها إلينا حين يعود إلى القدس

وقد أنجز الشيخ حفظه الله وعده، فأرسل القصيدة لتنشر في مجلة «الرسالة». ويتبين من القصيدة أنهم استغاثوا السلطان من قبل فكتب إلى الأسبان فلم يأبهوا لما كتب، وأن ملوك مصر أرسلوا رسلاً فادعى الأسبان أن المسلمين تنصروا مختارين، وسلكوا في الزور ما نعهده اليوم في السياسة الأوربية

ولسنا ندري ما كان جواب السلطان بايزيد على هذه الدعوة الملهوفة والقصيدة الباكية. فمن عرف شيئاً في هذا فليخبرنا مشكوراً

عبد الوهاب عزام

* * *

القصيدة ومقدمتها

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان أبي يزيد خان العثماني رحمه الله مانصه بعد سطر الافتتاح

«الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها. حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الاسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين، وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغياثنا،

مولانا أبو يزيد ، لازال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالى والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل فى الدار الآخرة ، والثناء الجميل والنصر فى هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مجردة على أعداء الدين من بأسها ما يروى صدور السمر والصفاح ، وألسنة السلاح ، سالكة سبيل السابقين ، الفائزين برضى الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاى من دار ملكه ... قسنطينة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من اهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكا على كل مـــلة
سلام على القاضى ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأى من اهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بالدلس بالغرب فى أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم بالها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم الألباط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير فى كل ساعة
أدام الاله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضى والكرامة
شكونا لكم مولاى ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
غُدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا ... ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبى محمد ... نقاتل عباد الصليب بنيـــة
ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا القوط من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرساننا تزداد فى كل ساعة ... وفرساننا فى حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانتفاض[1] عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا علينا فى الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلّت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن تكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا ... ولا نترك شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمناً ... بما شاء من مال الى أرض عُدوة
الى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أمانى وذمتى
فكونوا على أموالكم ودياركم ... كما كنتم من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد عُرفنا بها ... ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وحَطّها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... فى النار ألقوه بهزؤ وحقدة
ولم يتركوا فينا كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً نخلو به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... فى النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجىء منا لموضع كفرهم ... يعاقبه الألباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سموا قوماً يفتون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذى ... يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك فى الزبل طريحاً مجندلاً ... كمثل حمار ميّت أو بهيمة
الى غير هذا من أمور كثيرة ... قباح وأفعال عرار ردية
وقد بدلت أسماؤنا وتغيرت ... بغير رضى منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد ... بدين كلاب القوط شر البرية

(١) الأنفاض الدفائن

وآها على أسماء حين تبدلت بأسماء أعلاج من اهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنـــا يروحون للألباط فى كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية ولم يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآها على تلك المساجد حولت كنائس للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلا وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا إليه لجادت بالدموع الغزيرة
ويا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاى بالله ربنـــا وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد وأصحابه أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم . وكل ولىّ فاضل ذى كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إلهه العرش يأتى برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ وماقلت من شىء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم ومن ثم يأتيه إلى كل كورة
فبالله يا مولاى منوا بفضلكم علينا برأى أو كلام بحجة
فانتم أولات الفضل والمجد والعلا وغوث عباد الله فى كل آفة
فسل بابهم أعنى المقيم برومة بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم بغير أذى منا وغير جريمة
وحبسهم المغلوب فى حفظ ديننا وامن[1] ملوك ذى وفاء وجلة
ولم يخرجوا من دينهم ودبارهم ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعده فذاك حرام الفعل فى كل ملة
ولا سيما عند الملوك فانه قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا شهود الزور ممن أطاعهم ووالله ما رضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم علينا بهذا القول أعظم فرية

(١) لعله أشار بهذا القطر وبالبيت الذى يليه إلى الأقطاع الكبير الذى أقطعه فرديناند أبا عبد الله الصغير وبالمحلة التى قصرها عليه دون سائر قواد المسلمين وجنودهم

ولكن خوف القتل والحرق ردنا نقول كما قالوه من غير نيـــة
ودين رسول الله ما زال عندنا وتوحيدنا لله فى كل لحظة
ووالله ما رضى بتبديل ديننا ولا بالذى قالوا منّ امر الثلاثة
وإن زعموا انا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنـــا ومساءة
فسل انجرا[1] عن أهلها كيف أصبحوا
أســـارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلّفيقا[2] عن قضيـة أمرها
لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة[3] بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشُرّة[4]
واندَرَش بالنار أحرق أهلها بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فهانحن يا مولاى نشكو إليكم بهذا الذى نلقاه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم بأموالنا للغرب دار الأحبـة
فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم بملك وعز فى سرور ونعمة
وتمدين أوطان ونصر على العدا وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام الله تتلوه رحمة عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

انتهت الرسالة من نسختين بقلم مغربى رأيتهما بعاصمة فاس صانها الله من كل باس

منيل الخالدى

(١) هذه قبيلة كبيرة يزيد عددها على مائة ألف تسكن الآن مابين طنجة وسبتة

(٢) وأما بلفيق فهى بلدة أبى البركات البلفيقى من رجال الأندلس المشهورين

(٣) هى بلدة باحواز غرناطة دخلتها جنود فرديناند بأمان ثم فتكوا بأهلها جميعاً والآن يقولون لها منتافيه . وقد رأيت هذه البلدة تقرب من بلدة لوشه التى يقولون الآن عنها لوخه بلد لسان الدين فانهم يقلبون كل شين خاء فيقولون عن شينيل نهر غرناطة خينيل

(٤) وأما البشرات فهى ناحية كبيرة تشتمل على قرى كثيرة فيها مغارات حصينة مرت عليها فى طريق إلى جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج لا فى الشتاء ولا فى الصيف وأما ناحية البشرات فهى من أنزه بقاع الأندلس فيها الجنان الكثيرة والعيون الغزيرة وأنواع النبات والعقاقير والأقاويه وكنت أشم رائحة قوية حينما أتجول فى أنحائها (الخالدى) .